

تفسير سُورَةُ الْقَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسّم﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في سورة البقرة.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (٢)

﴿تِلْكَ﴾ أي هذه ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور، وعلم ما قد نأَن وما هو كائن.

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣)

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ كما قال تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3] أي نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد، وكأنك حاضر.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَدْخُلُ آبَاءَهُمْ وَيَسْتَخِي، نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤)

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي تكبر وتجبّر وطفى ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ يعني بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أحسن الأعمال، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحيي نساءهم إهانة لهم، واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥)
﴿وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (٦)

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى...﴾ وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَضِعُّونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَنَمَكَّرْنا فِيهَا وَنَمَتْ كُلَّتْ رَيْكُ الْحَقِّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَفْسَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: 137] وقال تعالى ﴿كَذَلِكَ وَأَوْزَنَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: 59] أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه ذلك مع قدرة

الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري، ولا يغلب، بل نفذ حكمه، وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده، وقتلت بسببه ألوفاً من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيته وتدله وتنفده، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السماوات العلى هو القاهر الغالب العظيم العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ كَالْقَيْهِ فِي أَلْيَمٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يفنى بني إسرائيل فيلون هم ما كانوا يملونه من الأعمال الشاقة، فقالوا لفرعون: إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم، وغلمانهم يقتلون، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك، فأمر بقتل الولدان عاماً، وتركهم عاماً، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان. وكان لفرعون ناس موكلون بذلك، وقوابل يدرن على النساء، فمن رأيتها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا، قبحهم الله. فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفتن لها الدايات، ولكن لما وضعت ذكراً ضاقت به ذرعاً وخافت عليه خوفاً شديداً، وأحبته حباً زائداً، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً، قال تعالى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: 39] فلما ضاقت به ذرعاً ألهمت في سرها، وألقي في خلدتها، ونفت في روعها كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وذلك أنه كانت في دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعت في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر، وذهلت أن تربطه فذهب مع الماء، واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجواري فاحتملته إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، فلما كشفت عنه إذ هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأبهاء فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها، وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمُنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾

ولهذا قال ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ واللام هذه ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ لام العاقبة، لا لام التعليل، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمُنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَئِكَ لَا تَقْتُلُونَهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٩﴾

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَئِكَ﴾ يعني أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه، وتذنب دونه، وتحببه إلى فرعون فقالت ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَئِكَ﴾ فقال فرعون: أما لك فنعيم، وأما لي، فلا، فكان كذلك، وهداها الله بسببه، وأهلكه الله على يديه. وقوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا﴾ وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه. وقوله: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي أرادت أن تتخذه ولداً وتبناه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة، والحنة القاطعة.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ فَلَيْهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً، أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى. ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أي إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتجبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها. قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ فَلَيْهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَقَالَتِ لِأُخْتَيْهِ فَصِيَّةٍ بُصِّرْتُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ ﴿١٢﴾

﴿وَقَالَتِ لِأُخْتَيْهِ فَصِيَّةٍ﴾ أي أمرت ابنتها، وكانت كبيرة تعي ما يقال لها، فقالت لها ﴿فُصِيَّةٌ﴾ أي اتبعي أثره وخذي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد فخرجت لذلك ﴿فُصِّرْتُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ عن جانب، أو عن جنب بعيد، أو جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده، وذلك أنه لما استقر موسى ﷺ بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك، واستطلقته منه عرضوا عليه المراضع التي في دارهم، فلم يقبل منها ثدياً، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما رأته بأيديهم عرفته، ولم تظهر ولم يشعروا بها. قال الله تعالى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي تحريماً قديراً، وذلك لكرامته عند الله، وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه، ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه، وهي آمنة بعدما كانت خائفة، فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك، ورجاء منفعتهم فأرسلوها، فلما قالت لهم ذلك

وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنّت إليها وأعطتها عطاءً جزيلاً، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي به ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي عليه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فيما وعدها من رده إليها، وجعله من المرسلين، فحينئذٍ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس، وعاقبته محمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216] وقال تعالى ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَنَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤)

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكماً وعِلماً يعني النبوة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَمِنَ الْغَدُوَّةِ فَاسْتَعْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥)

ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين فقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ عن ابن عباس: بين المغرب والعشاء، وعنه أنه كان نصف النهار ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي يتضاربان ويتنازعان ﴿هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي إسرائيلي ﴿وهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي قبطي، فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس فعمد إلى القبطي ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي طعنه بجميع كفه، أو وكزه بعضاً كانت معه فقضى عليه، أي كان فيها حتفه فمات ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦)

أَنَعَمْتَ عَلَىٰ فَلَن أَكُوتَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ (١٧)

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ أَيُّمَا جَعَلْتَ لِي مِنَ الْجَاهِ وَالْعِزِّ وَالنَّعْمَةِ ﴿١٧﴾ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً أَيْ مَعِيناً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أَيُّ الْكَافِرِينَ بِكَ، الْمُخَالَفِينَ لِأَمْرِكَ.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٨)

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً﴾ أَيُّ مِنْ مَعْرَةٍ مَا فَعَلَ ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أَيُّ يَتَلَفَّظُ وَيَتَوَقَّعُ مَا يَكُونُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، فَمَرَّ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ، فَإِذَا ذَلِكَ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ عَلَى ذَلِكَ الْقَبْطِيِّ يِقَاتِلُ آخَرَ، فَلَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ مُوسَى اسْتَصْرَخَهُ عَلَى الْآخَرِ فَقَالَ لَهُ مُوسَى ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ أَيُّ ظَاهِرُ الْغَوَايَةِ، كَثِيرُ الشَّرِّ، ثُمَّ عَزَمَ مُوسَى عَلَى الْبَطْشِ بِذَلِكَ الْقَبْطِيِّ فَاعْتَقَدَ الْإِسْرَائِيلِيُّ لَخَوْرِهِ وَضَعْفِهِ وَذَلَّتِهِ أَنَّ مُوسَى إِنَّمَا يَرِيدُ قَصْدَهُ لَمَّا سَمِعَهُ يَقُولُ ذَلِكَ فَقَالَ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ:

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٩)

﴿يَمْوَسَّى﴾ أُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ؟ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ إِلَّا هُوَ وَمُوسَى عليه السلام، فَلَمَّا سَمِعَهَا ذَلِكَ الْقَبْطِيُّ لَفَفَهَا فِي فَمِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى بَابِ فِرْعَوْنَ وَأَلْقَاهَا عِنْدَهُ فَعَلِمَ فِرْعَوْنَ بِذَلِكَ، فَاشْتَدَّ حَنَقُهُ وَعَزَمَ عَلَى قَتْلِ مُوسَى، فَطَلَبُوهُ فَبَعَثُوا وَرَاءَهُ لِيَحْضُرُوهُ لِذَلِكَ.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى ابْنَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنْ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (٢٠)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ وَصَفَهُ بِالرَّجُولِيَّةِ لِأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيقَ فَسَلَكَ طَرِيقاً أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِ الَّذِي بَعَثُوا وَرَاءَهُ، فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى فَقَالَ لَهُ ﴿يَمْوَسَّى ابْنَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أَيُّ يَتَشَاوِرُونَ فِيكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ أَيُّ مِنَ الْبَلَدِ ﴿إِنْ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

﴿وَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢١)

لَمَّا أَخْبَرَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ بِمَا تَمَلَّأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنَ وَدَوْلَتُهُ فِي أَمْرِهِ خَرَجَ مِنْ مِصْرَ وَحْدَهُ، وَلَمْ يَأْلَفْ ذَلِكَ قَبْلَهُ، بَلْ كَانَ فِي رِفَاقِيَّةٍ وَنَعْمَةٍ وَرِيَاسَةٍ ﴿وَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ أَيُّ يَتَلَفَّظُ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمُلَّتِهِ. فَذَكَرُوا أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى بَعَثَ إِلَيْهِ مُلْكاً عَلَى فَرَسٍ فَأَرْشَدَهُ إِلَى الطَّرِيقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (٢٢)

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أَيُّ أَخَذَ طَرِيقاً سَالِكاً مَهِيئاً فَرَحَ بِذَلِكَ ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ

السَّيْلِ ﴿٢١﴾ أي الطريق الأقوم، ففعل الله به ذلك، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة فجمعله هادياً مهدياً.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٢)

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي لما وصل إلى مدين، وورد ماءها، وكان لها بئر يرد رعاء الشاء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي جماعة يسقون ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا، فلما رآهما موسى عليه السلام رقا لهما ورحمهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي ما خبركما لا تردان مع هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا لَا سَقَى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى.

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٣)

قال الله تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ روى ابن أبي شيبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ فحدثناه فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم. إسناده صحيح. وقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل، وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق ثمرة. وقوله: ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ أي جلس تحت شجرة.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٤)

لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعاً فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، قال الله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي مشي الحرائر، كما روي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه قال: جاءت مستترة بكم درعها، وعنه جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء ولاجة خراجة. هذا إسناده صحيح. السلفع من الرجال: الجور، ومن النساء الجرية السليطة، ومن النوق الشديدة ﴿قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وهذا تأدب

في العبارة، لم تطلبه طلباً مطلقاً لثلاثي يومهم ربية، بل قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، يعني ليشبك ويكافئك على سقيك لغنمنا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي ذكر له ما كان من أمره، وما جرى من التسبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿قَالَ لَا تَحْفَ تَحَوَّتْ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول: طب نفساً، وقر عيناً، فقد خرجت من مملكتهم، فلا حكم لهم في بلادنا، ولهذا قال ﴿تَحَوَّتْ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَأُ اسْتَجْرَهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَأُ اسْتَجْرَهُ﴾ أي قالت إحدى ابنتي هذا الرجل، قيل: هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها: ﴿يَأْبَأُ اسْتَجْرَهُ﴾ أي لرعيه هذه الغنم، قال عمر وابن عباس وآخرون: لما قالت ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلفت على الطريق، فاحذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه. وعن عبد الله بن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: أكرمي مثواه، وصاحبة موسى حين قالت ﴿يَأْبَأُ اسْتَجْرَهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَٰئِنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجًا فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا

فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَٰئِنِ﴾ أي طلب إليه هذا الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين وقد استدل أصحاب أبي حنيفة هذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال بعثك أحد هذين العبدین بمائة، فقال: اشتريت، أنه يصح. والله أعلم. وقوله: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجًا فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي على أن ترعى غنمي ثمان سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك. وإلا ففي الثمان كفاية ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي لا أشاقك، ولا أؤاذيك، ولا أماريك، وقد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية، وروى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى عليه السلام أجر نفسه بعفة فرجه، وطعمة بطنه».

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ

وَكَبِيلٌ﴾

يقول إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين، فإن أتممت

عشرًا فمن عندي، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت ذمتي من العهد، وخرجت من الشرط، ولهذا قال ﴿أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ﴾ أي فلا حرج علي، مع أن الكامل وإن كان مباحًا، لكنه فاضل من جهة أخرى، وقد دل الدليل على أن موسى ﷺ إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما، روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت على ابن عباس رضي الله عنهما فسألته فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل، وقد روي مرفوعاً عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «سألت جبريل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما».

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَدُورَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٢٩)

قضى موسى ﷺ أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما، وقد استفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أي الأكمل منهما. والله أعلم ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلده وأهله فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره فسلك بهم في ليلة مظلمة باردة، فنزل منزلاً، فجعل كلما أوري زنده لا يضيء شيئاً فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أي رأى ناراً تضيء على بعد ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي حتى أذهب إليها ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿أَوْ بَدُورَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي قطعة منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي تستدفئون بها من البرد.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَّيْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٠)

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب كما قال تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: 44] فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحف الجبل مما يلي الوادي فوقف باهتاً في أمرها فناداه ربه ﴿مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ عن عبد الله قال: رأيت الشجرة التي نودي منها موسى ﷺ سحرة خضراء ترف. وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَمْوَسَّيْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه.

﴿وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا نُتْزِئًا كَآتِنَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ
إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ (٣١)

﴿وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ﴾ أي التي في يدك ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا نُتْزِئًا﴾ أي تضطرب ﴿كَآتِنَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا﴾ أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها واتساع فمها، واصطكاك أنيابها وأضراسها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعها، تنحدر في فيها تتقعقع كأنها حادرة في واد، فعند ذلك ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولم يكن يلتفت، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فلما قال الله له ﴿يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول.

﴿أَسْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلَّكَ
بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ (٣٢)

ثم قال تعالى: ﴿أَسْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تلالاً كأنها قطعة قمر في لمعان البرق، ولهذا قال ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي من غير برص. وقوله تعالى: ﴿وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ من الفرع، أو مما حصل لك من خوفك من لحية، والظاهر أن المراد أعم من هذا، وهو أنه أمر ﷺ إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب، وهو يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده، أو يخف إن شاء الله تعالى، وبه الثقة. وقد كان موسى يقول إذا رأى فرعون: اللهم إني أدرك بك في نحره وأعوذ بك من شره، فنزع الله ما كان في قلب موسى ﷺ من الرعب وجعله في قلب فرعون. وقوله: ﴿فَذَلَّكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني إلقاء العصا وجعلها حية، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحيان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله، مخالفين لأمره ودينه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٣٣)

لما أمره تعالى بالذهاب إلى فرعون الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه، وخوفاً من سطوته ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ يعني ذلك القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أي إذا رأوني.

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يُكَذِّبُونِ﴾ (٣٤)

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وذلك أن موسى ﷺ كان في لسانه لثغة بسبب ما كان

تناول من الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه فحصل فيه شدة في التعبير، ولهذا قال ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَأَجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَٰؤُلَاءِ أَخِي (٣٠) أَشَدُّ بِهِ أَتَرَى (٣١) وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي (٣٢) ﴿طه: 27-32﴾ ﴿رِذَاءً﴾ أي وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمرى ﴿يَصْدِقُنِي﴾ فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد، ولهذا قال ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (٣٥)

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي سنقوي أمرك، ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً معك كما قال ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ (طه: 36) وقوله: ﴿وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي حجة قاهرة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلي إذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ كما قال تعالى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة: 21) ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر: 51).

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَائِنَا الْأُولَىٰ﴾ (٣٦)

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاها الله من المعجزات الباهرة، والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده، واتباع أوامره، فلما عاين فرعون وملأه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من عند الله عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ﴾ أي مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك. وقوله: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَائِنَا الْأُولَىٰ﴾ يعنون عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِن عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣٧)

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِن عِندِهِ﴾ يعني مني ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم، ولهذا قال ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي من النصرة والظفر والتأييد ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي المشركون بالله عز وجل.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطِلُّ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافتراءه في دعواه الإلهية لنفسه القبيحة، لعنه الله كما قال تعالى ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: 54] وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم، وسخافة أذهانهم، ولهذا قال: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ وقال تعالى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٩﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٣٠﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٣١﴾﴾ [النازعات: 23-25] يعني أنه جمع قومه، ونادى فيهم بصوته العالي مصرحاً لهم بذلك فأجابوه سامعين مطيعين، ولهذا انتقم الله منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطِلُّ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ يعني أمر وزيره هامان، ومدير رعيته، ومشير دولته أن يوقد له على الطين، يعني يتخذ له أجراً لبناء الصرح، وهو القصر المنيف الرفيع العالي وقد بنى فرعون هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه، وأراد أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه في أن الله أرسله، لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا، فإنه قال ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 23] وقال ﴿لَيْسَ أَتَّخَذْتُ لِلْهِاءِ غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 29] وقال ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾.

﴿وَأَسْتَكْبَرَهُ هُوَ وَخُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَأَسْتَكْبَرَهُ هُوَ وَخُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ﴾ أي طغوا وتجبروا وأكثروا في الأرض الفساد ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الفجر: 13] ولهذا قال تعالى ههنا:

﴿فَأَخَذَتْهُ وَخُودُهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿فَأَخَذَتْهُ وَخُودُهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد ﴿فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً بَدْعُوتَ إِلَى النَّكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً بَدْعُوتَ إِلَى النَّكَارِ﴾ أي لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة، كما قل تعالى ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [عمد: 13].

﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على السنة المؤمنين من

عباده المتبعين لرسله كما أنهم في الدنيا ملعونون على السنة الأنبياء وأتباعهم كذلك ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعَنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُنُ مِنَ الرِّفْدِ الْمَرْفُودِ﴾ [هود: 99].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٤٣].

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعدما أهلك فرعون وملأه. وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، روى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية التي مسخت قردة بعد موسى ثم قرأ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ وقوله ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي من العمى والغي، وهدى إلى الحق ورحمة، أي إرشاداً إلى العمل الصالح ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ به ويبتدون بسببه.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٤٤].

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كان سامعه شاهداً وراء لما تقدم، وهو رجل أُمي لا يقرأ ولا يكتب شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم، وما كان من أمرها قال ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44] أي وما كنت حاضراً لذلك، ولكن الله أوحاه إليك، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه، وما كان من أنجاء الله له، وإغراق قومه قال تعالى ﴿يَلْكَ مِنَ آبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيًّا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَلْمِهُمَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِيِّ﴾ [٤٩] [هود: 49] وقال بعد قصة يوسف ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: 102] وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لذلك.

﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [٤٥].

ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدا ونسوا حجج الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ

مَدِينَتَ تَلَّوْا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ۖ أَيُّ مَا كُنْتَ مَقِيمًا فِي أَهْلِ مَدِينٍ تَلَّوْا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا حِينَ أَخْبَرْتَ عَنْ نَبِيِّهَا شُعَيْبَ، وَمَا قَالَ لِقَوْمِهِ وَمَا رَدُّوا عَلَيْهِ ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أَيُّ وَلَكِنْ نَحْنُ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ذَلِكَ، وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَى النَّاسِ رَسُولًا.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٦)

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أَيُّ أَمْتِكَ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِكَ إِذَا بَعَثْتَ. أَوْ إِذْ نَادَيْنَا مُوسَى، وَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَشْبَهَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرِّجِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: 44]، ثُمَّ أَخْبَرَ هُنَا بِصِغَةِ أُخْرَى أَحْصَى مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ النَّدَاءُ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: 26] وَقَالَ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: 16] وَقَالَ ﴿وَنَذَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَيْنَاهُ نَجَاتًا﴾ [مريم: 52] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أَيُّ مَا كُنْتَ مُشَاهِدًا لِّشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ اللَّهُ تَعَالَى أَوْحَاهُ إِلَيْكَ، وَأَخْبَرَكَ بِهِ رَحْمَةً مِنْهُ بِكَ وَبِالْعِبَادِ بِإِرْسَالِكَ إِلَيْهِمْ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيُّ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧)

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أَيُّ وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا لَتَقِيمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَلَيَنْقُطَ عَذْرُهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ عَذَابُ اللَّهِ بِكُفْرِهِمْ فَيَحْتَجُّوْا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ وَلَا نَذِيرٌ.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ (٤٨)

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَوْ عَذِبَهُمْ قَبْلَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ يعنون - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ، مِثْلُ الْعَصَا وَالْيَدِ وَالطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقَمَلِ وَالضَّفَادِعِ وَالدَّمِ وَتَقْيِصِ الزُّرُوعِ وَالشَّارِ مَا يَضِيقُ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَكَفْلَقِ الْبَحْرِ، وَتَظْلِيلِ الْغَمَامِ، وَإِنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ، وَالْحَجَجِ الْقَاهِرَةِ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ مُوسَى ﷺ حُجَّةً وَبِرْهَانًا لَهُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَّتْهُ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَنْجَعْ فِي فِرْعَوْنَ وَمَلَّتْهُ، بَلْ كَفَرُوا بِمُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أي أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿فَالَوْ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي تعاونا ﴿وَقَالُوا إِنَّا يَكْذِبُونَ﴾ أي بكل منهما كافرون .

﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا يَكْتِبْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾

وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كقوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: 91] إلى أن قال ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: 92] وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزله على محمد ﷺ، وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام . والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة، محلاً لبعض ما حرم على بني اسرائيل، ولهذا قال ﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا يَكْتِبْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ أي فيما تدافعون به الحق، وتعارضون به من الباطل .

﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٠﴾

قال تعالى : ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ، ولم يتبعوا الحق ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي بلا دليل ولا حجة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ أي بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥١﴾

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ فصلنا لهم القول ، أي أخبرهم كيف صنع بمن مضى ، وكيف هو صانع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أو ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ يعني قريشاً ، وهذا هو الظاهر .

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن كما قال تعالى ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: 121] .

﴿وَإِذَا يُنَالِ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٥٣﴾

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ أي من قبل هذا القرآن كنا مسلمين ، أي موحدين مخلصين لله مستجيبين له .

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ، ثم

الثاني، ولهذا قال ﴿يَا صَبْرًا﴾ أي على اتباع الحق، فإن تحشم مثل هذا شديد على النفوس، وقد ورد في الصحيح «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها» وقوله ﴿وَيَذَرُونِ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي لا يقابلون السيء بمثله، ولكن يعفون ويصفحون ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُفْقِرُونَ﴾ أي ومن الذي رزقهم الله من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضة المستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِيْ الْجَهْلِيلِينَ﴾ (٥٥)

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم، بل كما قال تعالى ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: 72] ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِيْ الْجَهْلِيلِينَ﴾ أي إذا سنفه عليهم سفیه وكلهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب، ولهذا قال ﴿لَا تَبْنِيْ الْجَهْلِيلِينَ﴾ أي لا نريد طريق الجاهلين، ولا نجها.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦)

يقول تعالى لرسوله ﷺ: إنك يا محمد ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة، والحجة الدافعة، كما قال تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 272] أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، وقد كان يحوطه وينسره ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً، فلما حضرته الوفاة، وحن أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه، واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، والله الحكمة التامة. لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عند: أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال رسول الله ﷺ «يا عم قل «لا إله إلا الله» كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول «لا إله إلا الله» فقال رسول الله ﷺ «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله تعالى ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: 9] وأنزل في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أخرجاه من حديث الزهري.

﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخَظِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ تَمَرُّثُ كُلِّ شَيْءٍ زَرْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخَظِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ ﴿إِن نَّبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخَظِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين، وحرم معظم آمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم، وقد أسلموا وتابعوا الحق؟ وقوله تعالى: ﴿يُجِئَ إِلَيْهِ تَمَرُّثُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿زَرْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ أي من عندنا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَوْ شِئْنَا لَازَلْنَا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى معرضاً بأهل مكة في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ﴿فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَوْ شِئْنَا لَازَلْنَا قَلِيلًا﴾ أي دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم. وقوله ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي رجعت خراباً، ليس فيها أحد.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم، ولهذا قال ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ وهي مكة ﴿رَسُولًا يَنْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي، وهو محمد ﷺ، المبعوث من أم القرى، رسولاً إلى جميع القرى من عرب وأعجام. ﴿فِي أُمَمٍ﴾ أي في أصلها وعظيمتها، كأمهات الرساتيق والأقاليم.

﴿وَمَا أُولِئُكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة، والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم كما قال تعالى ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْءُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96] وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ [آل عمران: 198] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

أي أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة؟

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (١١)

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ يقول: أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعدده ووعدده، فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ من المعذبين، ثم قد قيل: إنها نزلت في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل، وقيل: في حمزة وعلي وأبي جهل، والظاهر أنها عامة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (١٢)

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد، هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقرع والتهديد كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (١٣) [الأنعام: 94].

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا

إِيَّاكَ يَعْبُدُونَ﴾ (١٤)

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّاكَ يَعْبُدُونَ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووههم فاتبعوهم، ثم تبرأوا من عبادتهم.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (١٥)

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي ليخلصوكم مما أنتم فيه، كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي وتيقنوا أنهم صاثرون إلى النار لا محالة، وقوله ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أي فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦)

النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم، وكيف كان حالكم معهم، وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك ومن نبيك وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه هاه، لا أدري، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

﴿فَعَمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٦)

ولهذا قال ﴿فَعَمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّيْنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (١٧)

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي في الدنيا ﴿فَغَسَّيْنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي يوم القيامة، و«غسى» من الله موجبة فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَكَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨)

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي ما يشاء، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها: خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه. وقوله ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نفى على أصح القولين، كقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36] وقد اختار ابن جرير أن ﴿مَا﴾ ههنا بمعنى الذي، تقديره ويختار الذي لهم فيه الخيرة، وقد احتج بهذا طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح، والصحيح أنها نافية ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَكَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (١٩)

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم ما تكن الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالنَّارِ وَسَارِبٍ بِالنَّارِ﴾ [الرعد: 10].

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٠)

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو المنفرد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أي في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي الذي لا معقب له، لقهره وغلبته، وحكمته ورحمته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي جميعكم يوم القيامة، فيجزى كل عامل بعمله من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال.

﴿قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِمَا وَعَدْتُكُمْ أَنِّي بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَتَى الْكُفَّارَ اللَّهُ بِغَيْرِ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ

أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٢١)

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار للذين لا قوام لهم بدونهما، وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولسئمت النفوس، وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ أي تبصرون به، وتستأنسون بسببه ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ؟﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢)

ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً، أي دائماً مستمراً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان، وكلت من كثرة الحركة، والأشغال، ولهذا قال ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣)

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي خلق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي في النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال، وهذا من باب اللف والنشر. وقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل كما قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ (٧٤) [الفرقان: 62].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٧٥)

وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التوبيخ والتفريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب تعالى على رؤس الأشهاد فيقول ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي في دار الدنيا.

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٥)

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ يعني رسولاً ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي على صحة ما ادعيتموه من أن الله شركاء ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي لا إله غيره فلم ينطقوا ولم يجدوا جواباً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم.

﴿إِنَّ قُلُوبَكُمْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآيَيْنَاهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنْ مَفَاحِمُهُ لَنُؤْتِي بِالْعِصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦)

كان قارون ابن عم موسى، وقد نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي لكثرة ماله ﴿وَأَيُّبَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ﴾ أي الأموال ﴿مَا إِنَّ مَقَاتِعَهُ لَسَنُورًا يَلْمُصَّ بِهَ الشُّعُورُ﴾ أي ليثقل حملها على كثير من الناس لكثرتها ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي وعظه فيما هو فيه صالح قومه، فقالوا على سبيل النصيح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ يعني المرحين، أو الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٧٧﴾

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل، والنعمة الطائلة في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي مما أباح الله فيها من المأكَل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، فأت كل ذي حق حقه ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض، وتسيء إلى خلق الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي أنا لا أفتر إلى ما تقولون، فإن الله إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأنني أستحقه، ولمحبته لي، فتقديره إنما أعطيته لعلم الله في أنني أهل له، وهذا كقوله ﴿فَإِذَا مَنَّ الْإِسْلَامُ فَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ إذا حَوْلَنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ [الزمر: 49] أي على علم من الله بي ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي قد كان من هو أكثر منه مآلاً، وما كان ذلك عن محبة منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لكثرة ذنوبهم.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجميل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا، ويميل إلى زخارفها وزينتها

تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي قالوا ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُتْرُونَ﴾ إِنَّهُمْ لَدُوّ حَظٍ عَظِيمٍ ﴿أَيُّ ذُو حَظٍّ وَافِرٍ مِنَ الدُّنْيَا﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (٨٠)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترونه كما ورد في الحديث الصحيح، يقول الله تعالى «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» وقرأوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: 17) وقوله ﴿وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ أي ولا يلقي الجنة إلا الصابرون، وكأن ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم، أو ولا يلقي هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا، الراغبون في الدار الآخرة، وكأن ذلك مقطوع من كلام أولئك، فهو من كلام الله عز وجل وإخباره.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (٨١)

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه، وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه ولا حشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو منتصراً لنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَابُ اللَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٢)

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أي الذين لما رأوه في زينته قالوا ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُتْرُونَ﴾ [القصص: 79] فلما خسف به أصبحوا يقولون: ﴿وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع، ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود «إن الله قد قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب» ﴿لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي لولا لطف الله بنا، وإحسانه إلينا لخسف بنا، كما خسف به، لأننا وددنا أن نكون مثله ﴿وَيَكَابُ اللَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ يعنون أنه كان

كافراً، ولا يفلح الكافرون عند الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة. ﴿وَبِكَافٍ﴾ ألم تر أن، قال ابن جرير إنه أقوى الأقوال.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣)

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علوًّا في الأرض، أي ترفعاً على خلق الله، وتجبراً بهم، ولا فساداً فيهم. وعن علي: إن الرجل ليعجبه من شرك نعله أن يكون أجود من شرك نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره، فإن ذلك مذموم كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد» وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجميل فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أحب أن يكون ردائي حسناً، ونعلي حسنة، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال».

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤)

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أي يوم القيامة ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أي ثواب الله خير من حسنة العبد، فكيف والله يضاعف أضعافاً كثيرة؟ وهذا مقام الفضل. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٠) [النمل: 90] وهذا مقام الفضل والعدل.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي

ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨٥)

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة، وتلاوة القرآن على الناس، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد، وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي إن الذي افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك كما قال تعالى ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الاعراف: 6] أو لرادك إلى الجنة، ثم سائلك عن القرآن، أو لرادك إلى الموت، أو إلى مكة كما أخرجك منها. ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم، قل ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا
لِلْكَافِرِينَ﴾ (٨٦)

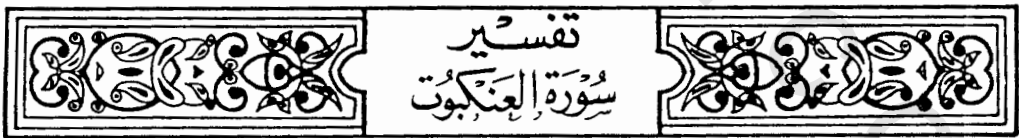
﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي وما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: 46] أي إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك هذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ أي معيناً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ولكن فارقهم وناذهم وخالفهم.

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨٧)

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي لا تتأثر لمخالفتهم لك، وصدّهم الناس عن طريقك، لا تلوي على ذلك ولا تبأله، فإن الله معك كلمتك، ومؤيد دينك، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، ولهذا قال ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨)

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا تليق العبادة إلا له، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم، الذي يموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ رَبُّكَ ذُو الْمَلَكُوتِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٨٩) [الرحمن: 26-27] فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا ههنا ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي إلا إياه ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي الملك والتصرف، ولا معقب لحكمه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم معادكم فيجزىكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَنْكَبُوتُ﴾ (٩٠)

تقدم لكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٩١)